حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

أُثَيْر السّكوني

كبير أطباء الكوفة في صدر الإسلام(*)

الأستاذ: ناجي محفوظ

بغداد

السّبب في قلّة أخبار الطّب في تلك الفترة:

إنّ العناية بالكتابة في تاريخ رجال الطّب جاءت متأخرة، بالمقارنة بغيرهم من رجال العلوم الأخرى، مثل رجال: اللغة، والتّفسير، والفقه، والكلام، وسواهم، أمّا العناية بتاريخ علم الطّب نفسه فشيء جديد.

هذا، وقد كانت الكوفة أولى حواضر الخلافة الإسلامية خارج الحجاز، ولم تطل مدة الخلافة فيها، إذ انتقلت منها إلى دمشق بعد صلح الإمام الحسن(عليه السلام)، ولم يكن عهد التّدوين قد بدأ بعد، ولما عادت الخلافة إلى العراق ثانية، كانت أيّامها في الكوفة – هذه المرّة- أقصر مما هي في المرّة الأولى، إذ انتقلت منها – مرّة أخرى- إلى الهاشمية فبغداد.

وقد حظيت بغداد بالرّعاية، فعلا شأنها وذاع صيتها، واجتذبت إليها رجال العلم من: الكوفة، والبصرة، وغيرهما من مراكز العلم قبل تشييد بغداد، فنافستها ثمّ فاقتها في الذّكر والصّيت، فانشغل النّاس عنها، وانصرفت العناية إلى الاهتمام بأخبار بغداد ورجالها وتدوينها، دون الكوفة والبصرة، إذ جمعت بين كونها حاضرة الخلافة وكونها دار العلم عصراً طويلاً.

أثير السّكوني:

ذكر أكثر من واحد: أنّه بعد أن ضرب ابن ملجم الإمام علياً(عليه السلام) بالسّيف [على رأسه]، جُمع له أطباء الكوفة، فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من أثير بن عمرو السّكوني، وكان متطبباً، صاحب كرسي، يعالج الجراحات، وكان أبصرهم بالطّب.

وإنّ أثيراً لما نظر إلى جرح أمير المؤمنين(عليه السلام) دعا برئة شاة حارة، فتتبع عرقها فيها، فاستخرجه وأدخله في الجرح، ثمّ نفخ العرق واستخرجه، فإذا عليه بياض الدّماغ، وإذا الضّربة قد وصلت إلى أم رأسه، فقال له: «يا أمير المؤمنين، أعهد عهدك، فإنّ عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك»[٢].

يتبين لنا من هذا الخبر عدّة أمور:

- **الأوّل**: إنّه كان في الكوفة – آنذاك- جماعة من الأطباء، وليس أثير السّكوني وحده، إلاّ أنّ الخبر لم يذكر عددهم، وقد كانت هذه الواقعة في رمضان سنة (٤٠) للهجرة[٣] كما هو معروف.

وبعد ثلاث عشرة سنة من ذلك، كانت حادثة أخرى في الكوفة، وقد ذكر فيها عدد الأطباء، ففي سنة ثلاث وخمسين طُعن زياد بن أبيه في أصبعه، وكان والياً على الكوفة[٤] فجاءه مولاه سليم بمائة وخمسين طبيباً، ذكر هذا غرسي النّعمة الصّابي، عن عوانة بن الحكم الكلبي[٥] المؤرخ الكوفي[٦] وأشار إليه أيضاً ابن كثير[٧]، لكنه لم يذكر سند الخبر، وهل هو عن عوانة أم عن غيره.

(*) عن: مجلة المورد البغدادية مج٢٨ ع٤ لسنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. ص٤٥-٤٨.

(٢) يجمع هذا الخبر ما جاء في:
أ- مقاتل الطّالبيين، الأصفهاني، القاهرة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م ص٣٨.
ب- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، مصر، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ٣: ١١٢٨.
ت- معجم البلدان، الحموي، مصر ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٦م ١: ١١١.
ث- معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، البكري، مصر ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م ١: ١٠٩.

(٣) مروج الذّهب ومعادن الجوهر، المسعودي، ط٣ مصر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م ٢: ٤٢٣/ ٥، والكامل في التّاريخ، ابن الأثير، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م ٣: ٣٨٧.

(٤) مروج الذّهب ٣: ٣٥/ ٦، والهفوات النّادرة، غرس النّعمة الصّابي، دمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م ص: ٨٢/ ٣.

(٥) الهفوات النّادرة ص: ٨٢، والبداية والنّهاية، ابن كثير، ط١ بيروت ١٩٦٦م ٨: ٦٣.

(٦) الإعلام، الزّركلي، ط٣ بيروت ٥: ٢٧٢.

(٧) البداية والنّهاية ٨: ٦٣.

إنّ هؤلاء الأطباء إن لم يكن جميعهم من الكوفة، وإلاّ فاكثرهم منها، ثمّ من الأماكن القريبة منها، وليس من المقبول القول: إنّ هذا العدد جمع من الأقاليم الأخرى أو المدن البعيدة، ولا سيّما أنّ إصابته مخوفة، وتستوجب التّعجيل في علاجه.

- **الأمر الثّاني**: أنّ أثيراً كان أبصرهم بالطّب، متميزاً عليهم، وإنّه كان صاحب كرسي، فما المراد بصاحب الكرسي؟

كان الأطباء قديماً - من حيث ممارستهم صنعة الطّب- على صنفين:

* **الصّنف الأوّل**: طبيب دوّار - يدور في الطّرقات ليعالج المرضى في بيوتهم وأماكنهم وغالباً ما كان يفعل هذا الطّبيب النّاشئ، في بدء اشتغاله بصنعة الطّب[1]، ليكسب معاشه، ويعرف شأنه ويشتهر أمره، ويزيده دورانه على المرضى معرفة بعلم الطّب، ويكسبه خبرة بصنعته، ويصبح - ولا شك- أكثر تجربة ممن لا يفعل ذلك.

* **الصّنف الثّاني**: طبيب يقعد في مكان معين، قد يكون: داره، أو دكاناً، أو غيرهما، ولا يقعد فيه - عادة- على الأرض، بل على الكرسي، ويأتيه المرضى ليفحصهم، ويصف لهم الدّواء، ويكون هذا - على الأكثر- بعد تقدمه في العلم وتمرسه في الصّنعة، واشتهاره، ويؤيد هذا:

أ- ما جاء في صفة الواعظ الصّالح، في إحدى خطب الملاحم للإمام علي(عليه السلام)، إذ قال عنه: «طبيب دوّار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من: قلوب عُمْي، وآذان صُمٍّ، وألسنة بُكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة».

وقد قال ابن أبي الحديد في شرح ذلك:

«إنّما قال دوّار بطبه، لأنّ الطّبيب الدّوّار أكثر تجربة، أو يكون عني به: إنّه يدور على من يعالجه، لأنّ الصّالحين يدورون على مرضى القلوب فيعالجونهم، ويقال: «إنّ المسيح(عليه السلام) رؤي خارجاً من بيت، فقيل له: يا سيدنا، أمثلك يكون ها هنا؟ فقال: إنّما يأتي الطّبيب المرضى»[2].

ب- وقد قيل أيضاً: إنّ الإمام علياً(عليه السلام) مرّ «في بعض شوارع البصرة، فإذا هو بحلقة كبيرة، والنّاس حولها يمدّون إليها الأعناق، ويشخصون إليها بالأحداق، فمضى إليهم لينظر سبب اجتماعهم، فإذا فيهم شاب حسن الشّباب نقيّ الثّياب، عليه هيبة الوقار وسكينة الأخيار، وهو جالس على كرسي، والنّاس يأتونه بقوارير من الماء[3] وهو ينظر في دليل المرضى[4] ويصف لكل واحد منهم ما يوافقه من أنواع الدّواء...»[5].

ت- هذا وقد تلجئ بعض الظّروف حتّى كبار الأطباء إلى القعود في الأماكن العامة، أو الدّوران على المرضى، كما يفعل صغارهم، للتخلص من العوز الّذي أصابهم، فالطّبيب إسحاق بن عمران، كان طبيب الأمير زيادة الله بن الأغلب، وله منه رزق، ولما حصلت جفوة بينهما، قطع الأمير رزقه، فاضطر إسحاق إلى الخروج «إلى موضع فسيح من رحاب القيروان، ووضع هناك كرسياً ودواة وقراطيس»، فكان المرضى يذهبون إليه، فيفحصهم ويكتب لهم الصّفات[6] - كل يوم- بدنانير..[7].

- **الأمر الثّالث**: هو الطّريقة الّتي اتبعها أثير في سبر غور الضّربة في الجمجمة، فإنّه لم يستعمل محرافاً[8] أو آلة معدنية أو قوية، لكنه وضع فيه عرقاً أخذه من رئة ذبيحة شاة لا تزال حارة، ثمّ نفخ فيه وهو في الجرح، ثمّ أخرجه ولاحظ ما علق به[9].

ولعله أخذ العرق من رئة حارة، لكونه لا يزال طرياً ليناً لم ييبس بعد، فيمكن أن ينزل في الجرح كيفما كان حاله، فلا ينكسر فيه أو يؤذيه، وقد استعاض بنفخة - وهو لا يزال في الجرح- عن ضغطه، وعرف مما علق به إنّ الضّربة قد نفذت إلى الدّماغ.

---

(١) يبدو أنّ ذلك استمر في بغداد - حتّى أوائل القرن الحالي، فيذكر (ماسينيون) من (نداءات الدّروب) الّتي سمعها وسجلها بين عامي (١٩٠٧-١٩٠٨) من منزله في محلة الحيدر خانة، هذا النّداء: «عيون الطّبيب، أنا (حكيم)، أنا طبيب، أنا طبيب عيون» تعليقات على لهجة بغداد العربية، لويس ماسينيون، ترجمة: د. أكرم فاضل بغداد ١٩٦٢م.

(٢) هي الخطبة الّتي أوّلها: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظّاهر لقلوبهم بحجته، خلق الخلق من غير رَوِيّة...» شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصر ١٣٢٨هـ ٢: ٢٢٢/ ٣.

(٣) قوارير من الماء: أي قوارير من البول، وهذا من كنايات الأطباء العرب القدامى استكراهاً للتلفظ بكلمة (بول) وقد يكتفى بكلمة «القارورة» فحسب.

(٤) دليل المرضى: أي بول المرضى، وهذه كناية أخرى من كناياتهم، وهي أخص بهم من «الماء»، وقد كان البول من الأدلة المهمة في معرفة المرض، وفق أسس مفصلة في كتبهم.

(٥) روض الرّياحين في حكايات الصّالحين، اليافعي، مصر ١٣٠٢هـ ص: ٤٨/ ٩.

(٦) الصّفات: وصفات الأدوية.

(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة بيروت ١٩٦٥م ص: ٤٧٨/ ٩.

(٨) المحراف: «آلة قياس مقدار غور الشّجة» أساس البلاغة، الزّمخشري، ط١ مصر (ق ي س) ٢: ٢٨٨.

(٩) المراجع المذكورة في الهامش الأوّل.

أين كان مجلس أثير في الكوفة؟:

يقول البكري: «والمشهور في صحراء أثير: ضم الهمزة، وفتح الثّاء، على التّصغير[1]، منسوبة إلى أثير بن عمرو السّكوني المتطبب: وهو الّذي استخرج من رئة شاة عرقاً... الخ»[2]، ويقول الحموي: «صحراء أثير بالكوفة»، وإنّها تنسب إلى أثير بن عمرو السّكوني الطّبيب الكوفي، ويذكر خبر فحصه جرح الإمام(عليه السلام)، ثمّ يقول: «وفي صحراء أثير حرق علىّ الطّائفة الغلاة فيه»[3]، وقد ذكر الأمرين كليهما صفي الدّين البغدادي أيضاً[4].

وأحسب أنّ هذه الصّحراء سميت باثير السّكوني لا غيره[5]، وإنّ داره كانت على طرف منها مشرفة عليها، ولعله كان يضع كرسيه أمام داره، ويأتي إليه النّاس هناك، يتطببون عنده، ولذلك عرفت الصّحراء به.

والمراد بالصّحراء هنا: الأرض الجرداء، الّتي ليس بها شجر ولا آكام ولا جبال، وكان بالكوفة عدة مواضع تعرف بالصّحراء، كما كان بالبصرة عدة مواضع تعرف بالجفر، والمعنى واحد[6].

أصل أثير:

قال العديد ممن ذكر أثيراً أنّه: «ابن عمرو السّكوني»[7] وقد زاد الأصبهاني: ابن عمرو بن هاني السّكوني[8] وقال ابن عبد البر القرطبي والنّويري والحموي: إنّ أثيراً يعرف «بابن عُمرياً»[9].

(١) معجم ما استعجم ١: ١٠٩، وفي معجم البلدان «كأنّه تصغير أثر» ١: ١١١، وفي مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدّين البغدادي، ط١ مصر ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م: «أثير تصغير أثر» ١: ٢٧.

(٢) معجم ما استعجم المشار إليه سابقاً.

(٣) معجم البلدان المشار إليه سابقاً.

(٤) مراصد الإطلاع المشار إليه سابقاً.

(٥) فقد جاء في كتاب: فتوح البلدان للبلاذري، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م: «... وصحراء أثير: نسبت إلى رجل من بني أسد، يقال له: أثير» ص: ٢٨٩، وفي معجم البلدان (في كلامه على صحراء أم سلمة»: «... فبالكوفة صحراء بني أثير: نسبت على رجل من بني أسد، يقال له: أثير بالكوفة...» ٥: ٣٤٠، فهل كان في الكوفة: صحراء أثير الأسدي وصحراء أثير السّكوني وصحراء بني أثير؟ أم أنّها صحراء واحدة؟

(٦) معجم البلدان ٥: ٣٤٠.

(٧) مقاتل الطّالبيين، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ومعجم ما استعجم، ومعجم البلدان ١: ١١١، ونهاية الأرب في فنون الأرب، النّويري، مصر ١٩٧٥م ٢٠: ٢١٤.

(٨) مقاتل الطّالبيين ص: ٣٨.

(٩) الاستيعاب ٣: ١١٢٨، نهاية الأرب ٢٠: ٢١٤، معجم البلدان ١: ١١١.

وقال الأصبهاني: «انّه من الأربعين غلاماً الّذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين التّمر فسباهم»[10]، وذلك إنّه لما فرغ من الأنبار، سار إلى عين التّمر، وبعد أن سبى كل من كان في حصنها: «وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق فكسره عنهم، وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهُن فقسمهم في أهل البلاء»[11].

وقد ذكر بعض المؤرخين – في كلامهم على فتح عين تمر– أسماء عدد منهم – ممن صار لهم أو لأولادهم – بعد ذلك– شأن، مثل:

– نصير: أبي موسى بن نصير.

– وأبي عمرة: جد الشّاعر عبد الله بن عبد الأعلى.

– وسيرين: أبي محمّد بن سيرين.

– وآخرين[12].

ولكنهم لم يذكروا اثيراً، مع بلوغه في تلك المرتبة في الطّب، ثمّ ارتباط ذكره بمقتل الإمام علي(عليه السلام) فلِمَ لم يذكروه إذا كان منهم حقاً؟

أمّا السّكوني:

«السّكوُني: بفتح السّين المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وفي آخرها نون، هذه النّسبة إلى السّكون، وهو بطن من كندة، وهو السّكون بن أشرس بن ثور، وهو كندة، ينسب إليه خلق كثير[13].

وعلى هنا، فإنّ أثيراً عربي من كندة، وإنّه كان نصرانياً في صغره.

قول آخر:

قال ابن عبد البر القرطبي في كلامه عن مقتل الإمام علي(عليه السلام): أنّ أثيراً «كان يقال له: أثير بن عمريا، وكان صاحب كسرى يتطبب، وهو الّذي ينسب إليه صحراء أثير»[14].

(١٠) مقاتل الطّالبيين ص: ٣٨.

(١١) تاريخ الأمم والملوك، الطّبري، مصر ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٩م ٢: ٥٧٧، الكامل في التّاريخ ٢: ٣٩٥، البداية والنّهاية، وفيه «وفرقهم في الأمراء وأهل الغناء»، نهاية الأرب، وفيه: «فقسمهم في أهل البلاد» بدل «البلاء» وهي تصحيف ١٩: ١١٣/ ٤.

(١٢) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٥٧٧، الكامل في التّاريخ ٢: ٣٩٥، البداية والنّهاية ٦: ٣٥٠، نهاية الأرب ١٩: ١١٣/ ٤.

(١٣) اللباب في تهذيب الأنساب، ابن الأثير، القاهرة ١٣٥٧هـ ١: ٥٥٠، ولاحظ أيضاً نهاية الأرب ٢: ٣٠٣/ ٤.

(١٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١١٢٨.

لقد جاءت عبارة القرطبي هكذا، في سائر طبعات كتابه «الاستيعاب»[1]، وقوله: «كان صاحب كسرى يتطبب» لا يخلو من غموض بنصه هذا، وقد جاء في كتاب «نهاية الأرب» الّذي ينقل عن ابن عبد البر نفسه: «كان صاحب كسرى يتطبب له»[2]، أي يداويه ويعالجه، فاصبحت العبارة بهذه الزّيادة واضحة قويمة.

ولكن: هل أنّ كلمة «له» في نص النّويري، كانت في الأصل الّذي نقل عنه أم أنّه أضافها من عنده ليستقيم بها المعنى؟

ولا بد – هنا- من أن نذكر: أنّ المؤرخ الكوفي عوانة بن الحكم الكلبي، قد ذكر: إنّ الأطباء المئة والخمسين الّذين جاء بهم سليم إلى زياد ابن أبيه لما طعن، كان «منهم ثلاثة قد أدركوا كسرى»[3]، والّذي يفهم من قوله هذا: انّهم أدركوه أطباء لا أطفالاً، وإلاّ فما مزية أن يدركوه أطفالاً، ثمّ هناك الكثيرون الّذين أدركوا ايّامه، أطفالاً أو صبياناً وأكبر من ذلك؟

ويؤكد ما ذهبنا إليه، قول ابن كثير: أنّ «منهم ثلاثة ممن كانوا يطبّ كسرى بن هرمز، فعجزوا عن ردّ القدر المحتوم والأمر المحموم»[4]، ولم يذكر – كما قلنا- سند خبره، وهل هو عن عوانة أم غيره؟ لأنّه إذا كان عن آخر، ازداد وثوقاً.

فإذا أخذنا بقول القرطبي والنّويري من بعده، فمعنى ذلك: أنّ أثيراً لم يكن غلاماً عندما فتح خالد بن الوليد عين التّمر، وإنّما كان قد جاوز مرحلة الشّباب، لأنّه كان طبيب كسرى، ولا يعقل أنّ طبيباً ناشئاً مبتدئاً يصير طبيب كسرى.

وهذا يفسر لنا عدم ذكره فيمن ذكر من أولئك الغلمان الأربعين، لأنّه لم يكن بينهم أصلاً.

بقي أمر آخر، وهو: يجوز أن تكون كلمة «كسرى» عند القرطبي مصحفة عن كلمة «كرسي» الّتي يستقيم بها معنى عبارته أيضاً، خاصة وانّها خالية من كلمة «له» الّتي وجدناها في عبارة النّويري؟

لهذا يرجح ما قاله الأصبهاني عن أثير السّكوني.

وهكذا، يكشف لنا هذان الخبران: (خبر مقتل الإمام علي(عليه السلام)) و(خبر مرض زياد ابن أبيه) عن وجود عدد كبير من الأطباء في تلك الفترة، كان بينهم أطباء كبار جداً، ذكر من اسمائهم (أثير السّكوني) في حين أنّ الكتب الّتي أرخت للأطباء لم تذكره لا هو ولا غيره، بل انّها لا تنبئ عن وجود أطباء آنذاك في الكوفة وما حولها.

إنّ تدقيق كتب التّاريخ العامة وأمثالها، يبرز – من ثناياها- أسماء عدد غير قليل من الأطباء، غير الّذين عرفناهم وتتردد أسماؤهم في تواريخهم، ويرسم صورة لحالة الطّب والأطباء أدق من الصّورة الّتي ارتسمت في الأذهان، فنرى الجانب الآخر منها الّذي خفي علينا.

* * *

(١) وهي ثلاث، الأولى: في مطبعة السّعادة في القاهرة سنة ١٣٢٨هـ على حواشي كتاب «الإصابة في تمييز الصّحابة»، وهي مقابلة على عدة نسخ مغربية، عليها خطوط العلماء الأعيان، وعلى نسخ المكتبة الخديوية المصرية أيضاً، والثّانية: صورة لتلك بالأوفست، قامت بذلك مكتبة المثنى في بغداد بدون ذكر التّاريخ، والثّالثة: بتحقيق علي محمّد البجاوي، وهي المشار إليها في الهامش الأوّل.

(٢) نهاية الأرب ٢٠: ٢١٤.

(٣) الهفوات النّادرة ص: ٨٢.

(٤) البداية والنّهاية ٨: ٦٣.